الفصل السابع
الخطوات الأولى في الإسلام

قبل نصف ساعة على حلول منتصف ليلة السابع من أغسطس (آب) عام ١٩٣٠م الموافق للعام الهجري ١٣٥٠هـ والمصادف لمولد الرسول محمد -صلى الله عليه وسلم- اقتربت سيارة خضراء اللون من طراز فورد ووقفت أمام الحرم في مكة. كانت السيارة تقل أربعة أشخاص: سائقاً مصرياً، وأحد التابعين الأوفياء من منطقة نجد، واثنين من وزارة المالية كانا جالسين في السيارة جلسة تدل على رباطة الجأش وعدم الاكتراث. كانا متأكدين من أن الشخصين اللذين غادرا السيارة سيعودان حالاً بعد إنجاز مهمتهما. كان أحدهما "مطوعاً" يدعى صالح العنقري، وكان مكلفاً بمهمة مساعدة الرجل الآخر في أداء شعائر زيارة البيت الحرام. ولم يكن الآخر سوى أنا نفسي جون فيلبي مرتدياً زي الإحرام. كنت قد اعتنقت حديثاً هذا الدين الإسلامي المثير للخشية والإعجاب، وهو الأبسط من بين كافة المعتقدات، إذ قال عنه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه، و ينصرانه، و يمجسانه»[1].

ومنذ أن وصلت إلى البنجاب بقيت لسنوات عدة على اتصال وثيق بالمسلمين، وظل الناس لأكثر من نصف تلك المدة ينظرون إليَّ على أنني المتحمس المؤيد

(١) جزء من حديث في صحيح البخاري وتتمته: «كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء». أخرجه البخاري: ١٣٥٩، ومسلم: ٢٦٥٨.

للعرب، والآن وبعد تفكير طويل وتمعن في الأمور قررت أن ألقي بثقلي لخدمة قضيتهم.

خلعت حذائي عند عتبة المسجد الحرام المرتفعة لتمنع دخول الماء إلى الحرم وقت هطول الأمطار الغزيرة. بعدها سلمت أمري لإرشادات الدليل المطوع الذي كان يمسكني من يدي اليمنى وهو يقودني من خلال باب السلام نحو صحن الحرم الذي اتسعت رقعته تحت نور القمر، وتقلبت ألوانه بفعل مرور الغيوم الخفيفة أمام القمر الذي كاد أن يكتمل. وفي وسط صحن المسجد الحرام وقفت الكعبة المشرفة مرتدية زيها الأسود المخملي بوقار لا يمكن أن يلمسه إلا مجموعة معينة من الرجال. كانت على ذلك الطيلسان نقوش بحروف من فضة وكتابات قرآنية تلف الجوانب الأربعة من الكعبة بارتفاع يصل إلى ثلثي علوها. جلس بضع مئات من الناس على شكل جماعات في وسط الحرم: كان بعضهم يصلي، وكان البعض الآخر مستغرقاً في الابتهالات، في حين كانت جماعات كبيرة تطوف حول الكعبة وكأنها جدول لا يتوقف جريانه أبداً إلا في أوقات صلاة الجماعة. في بعض الأحيان كان يتناقص العدد ليصل إلى شخص واحد أو شخصين يقومان بالطواف الذي يعد الركن الرئيس في تلك الشعائر. وبدأ هدوء الليل يكتنف بانسجام بالغ دمدمات المصلين.

كنت أردد شعائر الزيارة كما كان يمليها علي ذلك «المطوع» الذي لم يترك يدي على الإطلاق. تقدمت معه إلى وسط الحرم بعد أن اجتزنا باب السلام الذي يمثل أحد مداخل الحرم، وهناك وجدت نفسي واقفاً أمام الكعبة المشرفة. كان مقام إبراهيم وبناء بئر زمزم على يميني ويساري على التوالي. وجهت وجهي إلى الحجر الأسود في الزاوية الشرقية من الكعبة وبلغ ارتفاعه لمحاذاة كتفي. وبينما كان

الحجاج يتلمسون الحجر أثناء مرورهم به اقترب المطوع من الحجر وقبله بوقار. فعلت كما فعل المطوع، بعدها أمسك بيدي وطفنا حول الكعبة سبعة أشواط. كنت أثناء الطواف أكرر ما كان يقوله الدليل. وكنا عند كل طواف نقف لنقبل الحجر الأسود. أما عند الزاوية الجنوبية فوقفنا بوقار أمام الركن اليماني الذي هو كتلة من حجر الصوان في تجويف يطل من وراء رداء الكعبة المخملي. وهناك كنا نرفع أيدينا اليمنى ونردد النصوص الشرعية المناسبة.

وعند إتمام الطواف ذهبنا خلف مقام إبراهيم عليه السلام لنؤدي ركعتي الطواف. أنهينا زيارتنا بالوقوف عند بئر زمزم وشربنا من مائه الذي هو برأيي -مع احترامي لـ بورتون ولآخرين سبق لهم وأن انتقدوا طعم مياه زمزم وتحدثوا عن محتواها من المواد الكيميائية- مستساغ ولا يوجد به بعد تجربتي أي طعم سيئ. كانت شعائر الطواف مثيرة للخشية ولا يمكن لأي كلمات أن تصف ذلك الشعور. شعرت وعلى نحو غريب بأن تلك الشعائر كانت مألوفة بالنسبة لي وكأنني سبق وأن قمت بها.. ولا شك أن السبب في ذلك يعود لنتيجة إلمامي الجيد بالأدب العربي والترحال في بلاد العرب وقراءتي عن شعائر الحج. كانت تلك التجربة -في أحد جوانبها- تجربة فريدة من نوعها. وبفضل ظرف ولطافة الملك العظيم ابن سعود الذي أعتبره أكثر من صديق يمكن أن أقول ودون مبالغة بأنني كنت أول شخص يدخل في الإسلام بطريقة عملية تمت وسط المعالم التاريخية وما يحيط بالكعبة المشرفة في مكة.

قبل ذلك حدث مراراً أن شعرت بأنه لو أنني -بطريقة ما- تمكنت سراً من الدخول إما إلى الحرم المكي أو إلى مسجد الرسول في المدينة لكان اعتناقي للإسلام قد تم على غرار اعتناق الراهب حنا للديانة المسيحية عندما كان في طريقه

إلى دمشق، وكانت الغشاوة تنجلي عن عينيه ليرى حقيقة كانت محجوبة عنه. إن الفترة الطويلة التي قضيتها بين أناس لم ينشروا فقط تعاليم الإسلام، بل مارسوها بإخلاص وتعصب قربتني كثيراً من القرار الذي توصلت إليه في نهاية المطاف. على أية حال كنت معروفاً جداً بين العرب لدرجة أنه لا يمكن أن تراودني فكرة القيام بعمل طائش أو مغامرة من ذلك النوع. وكان علي أن أجزم أمري في ظل ظروف أكثر واقعية مع معرفتي بأن اتخاذ قراري في الدخول في الإسلام كان سينضوي في ظل فترة الامتحان الذي تتعرض له جدة والذي كان سينتهي قبل حصولي على إذن للدخول إلى أقدس المقدسات.

لم أستسغ قضاء تلك الفترة في جدة، وعند عرض ذلك الموضوع على الملك تجرأت في أن أشترط أن لا تكون جدة هي المسرح الذي أخضع فيه لامتحان التأكد من أهليتي لدخول الإسلام. كان جلالته في ذلك الوقت في الطائف وبالتحديد في الجبال الجميلة التي تشرف على مرتفعات مكة من الشرق. شعرت بأن فترة نقاهة هناك تسبق قيامي بزيارة الأماكن المقدسة يمكن أن تسهم كثيراً في تأمين الأذن لي بالحج. وأخيراً وافق الملك على طلبي، وعندما حان وقت قيامي بتلك الزيارة تصرف الملك بحمية وبكرم معهود به.. لا يمكنني أن أجازيه على ذلك الكرم إلا باستمرار الولاء والإخلاص له، وهو ما ميز علاقتي معه منذ أن قابلته لليوم الأول في الرياض. كان في حينها حاكماً على مملكة صحراوية بسيطة، لكنني توسمت فيه أن يصبح الحاكم القادم على كافة أرجاء الجزيرة العربية.

في صباح اليوم السابع من شهر أغسطس (آب) كنت جالساً في مكتبي بجدة وإذ بالهاتف يرن... رفعت السماعة لأسمع صوت ابن سعود يتحدث معي من الطائف. قال لي: «كيف حالك؟ هل الطقس حار جداً في جدة؟». أجبته بصدق

بأن الطقس كان فعلاً حاراً. فقال: «حسناً، يمكنك القدوم إلى هنا وقتما تشاء». وأضاف: «لقد تلقيت رسالتك وأنا أرحب بك. متى يمكنك الحضور إلينا؟ إذا كنت جاهزاً عصر هذا اليوم فسأرسل لك من يرافقك إلى مكة هذا المساء». كان أمامي خمس ساعات فقط لأرتب منزلي وأحزم حوائجي، ومع عصر ذلك اليوم كنت في طريقي إليه، وبعد ساعتين وصلت واحة حدّا في وادي فاطمة الذي يقع على بعد بضعة أميال من أراضي مكة المكرمة. وهناك استقبلني وفد مهيب يترأسه الشيخ عبدالله السليمان -وزير المالية- والشيخ فؤاد حمزه -نائب وزير الخارجية- وكانا هناك ليرعيا ويضمنا دخولي إلى مكة. وبعد تناول القهوة والمرطبات في خيمتهما، وتوضأت ولبست لباس الإحرام، ركبت معهم في السيارة التي سارت في ضوء ذلك النهار وجابت بنا في مشاعر الحج التي أصبحت معروفة لي. حددت منطقة الشميسي التي كان فيها علمان من معالم الحدود بين القلعة والحرم، ومررنا بقهوة العبد وبستان البير واصلنا السير حتى جرول بعدها وصلنا الضواحي القريبة من مكة التي كان عبدالله السليمان قد عمر فيها منزلاً فخماً مع مزرعة جميلة. وبعد أن تناولنا طعام العشاء توجهت إلى الحرم لأداء الشعائر التي سبق أن ذكرتها. عدت بعدها لأقضي أول ليلة لي في المدينة المقدسة.

لقد اتخذت قراراً خطيراً لا سبيل إلى الرجوع عنه. ولا بد إن كانت مشاعري المرتكزة على وعيي الكامل والمستحيل تحليلها مشابهة لمشاعر العديد من الرجال في الماضي - بدءاً من يوليوس قيصر وحتى الوقت الحاضر، إذ كانت قراراتهم نهائية ولا رجعة عنها. لقد أحرقت زوارق الأمس وها أنا أواجه عملاً جديداً دون أي أسف أو وخز ضمير. وأخيراً أينعت ثمرة الدراسة التي قمت بها على مدى نصف عمري الماضي. واكتفيت بأن أترك أمور المستقبل للقدر نفسه.

أما بالنسبة لأولئك الذين يمكن أن يتساءلوا عن سبب اتخاذي مثل تلك الخطوة فيمكن أن أطرح عليهم السؤال التالي: هل هناك ثمة سبب منعني من اتخاذ تلك الخطوة منذ زمن طويل؟ كان الملك نفسه وعلى طول تلك الفترة العامل الكبير الذي أدى دوراً في ذلك المنحى. ففي خريف عام ١٩٢٤م وبعد أن فتح السعوديون الطائف ومكة قدمت إلى جدة وأنا مقتنع من اكتمال النصر الذي حققه ابن سعود، وكنت عازماً على اتخاذ تلك الخطوة وإن كنت قد قضيت في سبيل تحقيقها ست سنوات.

كان النصر قد تأخر وعندما تحقق أخيراً تبعته أعمال اضطراب وقلاقل، وكان من غير الممكن للملك وسط هذه الظروف أن يقبل التضحية الواضحة في التزامي العلني بقضيته. لكنه الآن أصبح منتصراً يعيش مرحلة السلام، ولم يعد بحاجة إلى مساعدة أحد. كما أنه لم ينس أصدقاء الأيام العسيرة، فها هو الآن يحتضنهم بود سيستمر حتى آخر أيامه.

وبعد أن انتهينا من مشاعر الطواف وخرجنا من باب الصفا توجهت مع مرشدي الديني للسعي سبعة أشواط بين الصفا والمروة. بلغت المسافة بين الصفا والمروة ٣٨٠ ياردة يمشي المعتمر منها مسافة ٣٥ ياردة مهرولاً، أما باقي المسافة فيقطعها بالمشي العادي. كان مرشدي ممسكاً بيدي، وكنا نردد الأدعية الشرعية المستحبة في هذا الجزء من العمرة. كان السعي والهرولة في تلك المسافة التي تبلغ في مجملها ميلاً ونصف الميل متعباً بعض الشيء، وكنا عند نهاية كل شوط نتوقف قليلاً للدعاء متوجهين نحو الكعبة. وكان من دواعي سروري أن عدت إلى منزل عبدالله السليمان لأخذ قسط من الراحة. وبعد حديث ودي دار بيني وبين صديق بولوني له يدعى فؤاد أحمد سافيسكي -الذي كان في ذلك الوقت مسؤولاً عن ورشة الصيانة التي تشرف عليها الحكومة- خلدت إلى النوم.

وفي صباح يوم الجمعة تشرفت بزيارة واحد من كبار مشايخ المدينة ويدعى الشيخ عبدالله بن حسن[1] وهو سليل أسرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب مؤسس الدعوة. قدم الشيخ عبدالله لتهنئتي بالدخول إلى الدين الإسلامي، وقال: إنه قدم أيضاً ليرتب معي أمر مرافقته مع عدد آخر من المطاوعة لأداء صلاة الجمعة في الحرم الشريف.

أخذني فؤاد حمزة في نزهة بالسيارة جلنا بها شوارع المدينة والمناطق القريبة المحيطة بها، وبعد أن خضت أول تجربة لي في أداء صلاة الجمعة عدنا جميعاً إلى منزل وزير المالية لتناول طعام الغداء وبرفقتنا عبد الله السليمان والعاملين معه. كان عبدالله بن حسن في غاية اللطف في استقبالي. واستعدنا حدثاً من الماضي جعلنا نضحك كثيراً. . ويتلخص ذلك الحدث بأننا اجتمعنا بالصدفة في مقهى بير الحساني الواقع على طريق المدينة، وهناك احتج عبدالله بن حسن بشدة على وجود أحد الكفار في جوار ذلك المقهى. قال لي عبدالله بن حسن إنه «قبل ذلك اليوم لم يكن بيني وبين الجحيم سوى الموت، ولكن الآن أصبحت الجنة بانتظاري بعد الموت، ذلك إذا قبل الله عز وجل اعتناقي الخالص للإسلام».

خلال ساعات ذلك النهار قابلت في شوارع مكة عدداً من الأصدقاء والمعارف، كما قمت بزيارة بعض الأصدقاء في منازلهم، ودهشوا لما شاهدوه حولي من حفاوة وتكريم. أما من سمع عن خبر اعتناقي للدين الإسلامي فبحث عني في كل مكان ليعرب عن تهانيه.

---

(١) الشيخ عبدالله بن حسن بن حسين آل الشيخ، عينه الملك عبدالعزيز رئيساً للقضاة في مكة المكرمة سنة ١٣٤٦هـ. توفي سنة ١٣٧٨هـ.

قضيت في مكة، في -تلك المناسبة-، أقل من أربع وعشرين ساعة؛ لأنه كان علي أن أرافق فؤاد حمزة عصر ذلك اليوم إلى الطائف. وفعلاً وصلنا إلى الطائف العاصمة الصيفية الرائعة لمنطقة الحجاز في منتصف تلك الليلة. وهناك قضيت أسبوع أعياد ميلاد السيد المسيح لعام ١٩١٧م، وكانت تلك واحدة من أعمال رحلتي الأولى عبر مناطق الجزيرة العربية. وكانت مصادفة غريبة أن وجدت إبراهيم بن جميعة يستقبلني في صباح اليوم التالي على باب قصر شبرا إذ كنت قد ذهبت إلى هناك للسلام على الملك. كان جلالة الملك منشغلاً في سماع سلبيات وإيجابيات مشكلة قضائية لكنه أوقف تلك الإجراءات ليرحب بي خير ترحاب وأجلسني إلى جانبه ثم عاود العمل على تلك القضية. كان الملك يتوقف أثناء سير تلك التحقيقات ليشير إلى مدى سعادته في اعتناقي الدين الإسلامي، وقال: «إنني مسرور جداً لـ فيلبي، وإن الناس في نجد يشاركوني تلك السعادة.. حتى نسائي مسرورات من ذلك الحدث لدرجة أنه عندما أخبرت شقيقتي نورة صفقت من الفرح. لقد فعل فيلبي الكثير من أجلي ومن أجل نجد، لقد قدم الكثير من أجلنا، لقد اختلف في الرأي مع سياسة حكومة بلاده واستغنى عن منصبه الرسمي، وكان كل ذلك من أجلنا علماً بأنني لم أفعل أي شيء من أجله. مضى على رغبته في الدخول إلى الدين الإسلامي وقت طويل، وكنت أنا من منعه من القدوم على فعل ذلك الشيء إلى أن سنحت الظروف. عندما اطلع علماء نجد على رسالته الموجهة إليَّ بذلك الخصوص قالوا بأنني كنت مخطئاً في الوقوف في طريقه. ولكن كانت لي أسبابي وأنه متفهم لها. وأخيراً جاءت الفرصة المناسبة، والحمد لله، ولا نقدر أحداً أكثر مما نقدر فيلبي. والآن وقد أصبح جون فيلبي بيننا.. فهي اللحظة السعيدة! وبعد انتظار طويل ها هو فيلبي قد أدى وفي خلال ساعات

معـدودة الطواف في بيت الله الحـرام وسعى بين الصـفا والمـروة كمـا أدى صلاة الجمعة في الحرم!».

كانت هناك أمور كـثيرة ذكرها الملك ودونتـها في مذكراتي اليـومية. وفي تلك المناسـبة تقـدم الابن الأكـبر للمـلك ويدعى سعـوداً -والذي لم يكن آنذاك وليـاً للعهـد، ولكنه اليوم ملك في مكان والده- وأعرب عن طيب أمنيـاته لي. انتهت تلك الجلسة في البحث عن اسم مناسب لي أدعى به: قال الملك لما لا يكون ذلك الاسم (عبدالله)؟ وبالفعل كان ذلك اسمي منذ ذلك الحين.

سبق أن تحدثت في عدد من كتبي الأخرى[1] عن الأيام السعيدة التي نعمت بها خلال إقامتي في الطائف وفي أماكن ومناسبات أخرى إذ شعرت بأنني كنت واحداً من ذلك المجتمع العربي السعـيد الذي تخلو منه كل المشاكل: سلط العرب الضوء على تفاصيل الحيـاة وعلى المشاغل الاقتصادية والسيـاسية التي ظهرت في الماضي البعيد والتي تم نسيانها وسط الإيقاع المتـسارع للحياة المعاصرة في الجزيرة العربية. لكن روتين الحـياة اليـومية لـم يزغ عن النمط الذي ورثوه من ثقافـة الماضي الذي تراكم على مدى قـرون عدة من حـياة العرب في الصـحراء. يعـود لهذه الثقـافة الفضل فيـما يميز العرب من سمعـة حسنة. بقيت الأخلاق على وضعـها المثالي. تداخل الجذل الطبيعي عند الناس البسطاء مع التشـدد في العقيدة الإسلامية، فكانوا راضين سعداء بالحياة البـسيطة التي فرضتها عليهم الظروف الاقتـصادية للحياة في الصحراء. لم يكن الناس قد خطـوا الخطوات الأولى في دروب حياة العالم الذي بدا وجوده في الفضاء الخارجي يأخذ شكلاً رائـعاً، لكن مع الكثير من الغموض.

(١) انظر: «حاج في الجزيرة العربية»، «أيام عربية»، «الذكرى العربية الذهبية». (المؤلف).

كان يأتي إلينا من ذلك العالم المتقدم زوار ومهاجرون سيتضح تأثيرهم علينا مع مرور الأيام، لكنهم حاولوا طرد شبح الفقر المحتوم الذي تفشى في كافة مناطق البلاد.

بدأت عائدات الحجيج في تحسين الوضع المالي للمملكة العربية السعودية، وكانت تلك البلاد قد اعتادت ومنذ زمن طويل على العيش على المصادر الشحيحة في الصحراء. لكن كان التردي الاقتصادي العالمي قد أصدر تحذيره من مغبة الافتراض بأن الرفاهية الدائمة كانت قادمة. كان بمقدور الفرد أن يستشعر التصرف الجدي عند المسؤولين بالدرجة الأولى عن تعزيز وتطوير إدارة الحكم التي كانت لا تزال فتية والتي بشرت بمستقبل واعد خيِّر. وبما أنه كانت لديهم من المشاكل ما يشغل تفكيرهم لم يتم طرح أية مشاريع طويلة المدى تتعلق بدراسة واستكشاف المصادر الطبيعية التي يمكن أن تكون موجودة في البلاد. أستثني من بينهم وزير المالية عبدالله السليمان الذي كان متفائلاً بعض الشيء. كانت أمور تحسين وسائل الاتصالات لأغراض أمنية وتحسين الخطط الزراعية على نطاق متواضع، إضافة إلى موضوع التعقل في الجهاز الإداري المعقد من بين الأهداف الفورية الملحة التي يمكن أن تستنزف كافة القدرات المالية في البلاد. لم تعكر هذه الهواجس صفو الحياة الاجتماعية التي كانت تتخللها جلسات تسلية من نوع أو آخر، إضافة إلى ولائم غير رسمية تتم في قصر شبرا ورحلات إلى مزارع الوادي أو إلى مناطق الصحراء، وحفلات عشاء أو غداء في بيوت كبار الرسميين والوجهاء المحليين، وزيارات متكررة إلى الأمراء والأصدقاء.

كنت خلال الأسبوع الأول من فترة استراحتي ضيفاً على فؤاد حمزة الذي كان في ذلك الوقت واحداً من الدعائم الرئيسة في الحكومة وخاصة في مجال الشؤون

الخارجية. بعدها انتقلت إلى بيت ضخم في أحد أحياء المدينة وضع تحت تصرفي طيلة إقامتي، وشعرت فيه بحرية التنقل على الشكل الذي يعجبني واستقبال من أريده من الزوار. وأصبح بإمكاني أيضاً أن أوسع دائرة التنزه والترحال في المناطق المجاورة للطائف: مثال على ذلك الذهاب إلى بساتين الرمان المشهورة في وادي ليّة، علماً بأنه لم تتحْ لي الفرصة خلال الأسابيع الأولى من حياتي الجديدة هذه في التنقل في الجبال الشامخة من السلسلة الجبلية الوسطى والتي كنت أشاهدها من شرفة منزلي.

على أية حال -وعند حوالي منتصف شهر أيلول- أصبح بإمكاني الإعداد لرحلة إلى مكة عن طريق منفذ في السلسلة الجبلية التي استمد منها اسم الحجاز. ركبت بغلاً بطيء الحركة، بينما ركب الرجال الثلاثة الذين رافقوني في ذلك المشوار الحمير: كان أحدهم موظفاً حكومياً، وكان الثاني والد زوجته، أما الثالث فكان سائق البغال الذي يصعب تصنيفه لاختلاط عرقه. وضعنا أمتعتنا بما فيها بلبل في قفص إضافة إلى علف الحيوانات على ظهر الدواب لتكون بمثابة السرج الذي نجلس عليه. بدأت رحلتنا بمطر خفيف تحول قبل وصولنا إلى منطقة ميقات وادي محرم إلى مطر غزير. وهناك كان علينا أن نتوقف لقضاء تلك الليلة؛ ولأننا كنا مبتلّين تماماً بالمطر فكان همنا الأول أن نبدل ملابسنا. وبعدها نزلنا في ضيافة رجل كريم سخي من قبيلة قريش وكان معه ابنه وزوجة ابنه. كانت تلك السيدة الشابة تحرص على خدمتنا، وتقديم الضيافة لنا، وكانت جميلة تطوف بيننا من دون غطاء على رأسها مرتدية عباءة زرقاء داكنة اللون وعلى أطرافها تطريز باللون الأبيض، وتحت هذه العباءة بنطلون من قماش ثوبها نفسه. كانت بين الحين والآخر تختفي خلف ستار لتعتني بطفل كان غارقاً في البكاء. أما زوجها الذي

كان يرتدي إزاراً يصل إلى ركبتيه فكان قصير القامة، رشيقاً وسيماً، أما والده الذي بلغ من العمر ٦٥ عاماً اعترف بأنه عندما زار مكة والطائف لم يكن قد شاهد البحر من قبل أو حتى زار المدينة. كانت لديهم قصص وحكايات عن المتعصبين الذين اجتاحوا القرية قبل ست سنوات وهم في طريقهم لفتح مكة. طرحنا بعض الأسئلة على الرجل المسن لنتأكد من صدق روايته: سألناه هل كان والدك مسلماً أم كافراً؟ فأجاب بطريقة دبلوماسية بأنه لا يعرف ذلك؛ لأن والده مات عندما كان طفلاً. والسؤال التالي كان: هل أنت مسلم؟ فأجاب بأنه يؤدي الصلاة وصوم رمضان وما شابه ذلك ويأمل أن يكون مسلماً صالحاً مثلنا. وأخبرنا أيضاً أن العديد من سكان وادي محرم هجروا منازلهم بعد أن تفجر الوضع ودفع السعوديون بجمالهم داخل مزارعهم وداخل بساتين الرمان والسفرجل وكروم العنب. وأضاف أنه عادة إذا جاءت سنة من السنين سنة خير ومطر وفير فالسنة التالية تكون سنة قحط وكوارث. اعتاد تجار مكة الذين يشترون منتجاتهم أن يبيعوهم متطلباتهم الأساسية بربح يصل إلى مئة بالمئة لكي يحصلوا على المال عند جني محصول العام القادم.

كانت تلك الأمور تحدث قبل قرن من الزمن، ولم يسبق لي أن زرت تلك المنطقة منذ زمن طويل، لكنني آمل أن تكون الأحوال قد تغيرت إلى الأفضل. تعد قرية دار البيضاء القرية الرئيسة في تلك المنطقة. وفي صباح اليوم التالي قمنا بزيارة تلك القرية لتتفقد أحوال المدرسة فيها التي كانت مصدر فخر كبير بالنسبة للسكان.

استغرق وصولنا إلى قرية الهدا -الواقعة على سهل واسع عريض بعض الشيء يبلغ ارتفاعه عن سطح البحر حوالي سبعة آلاف قدم- حوالي الساعة تقريباً، وجدنا هناك بساتين الفاكهة وحقول الذرة التي كانت تقف في وسطها مباني المزرعة

المبنية من حجر الصوان. كانت إحدى هذه المباني بيت الضيافة المحلي الذي نزلنا فيه في الطابق الأول. كانت ساحة بيت الضيافة تعج ببغال وحمير سكان الجبال، وكانت هناك امرأة عارية الرأس كان وضعها مناف للذوق السليم. حاولت أن تثير المشاكل بين الرجال بأسلوب امتزج فيه الغزل مع التهجم. وكان يطل علينا من الهدا ذلك الجلمود الضخم الماثل أمام بيت الضيافة والمرسوم عليه صورة أسد أثرت عليها عوامل الطقس إضافة إلى كلمات منقوشة بخطوط مختلفة كانت إحداها باللغة الثمودية. وبالفعل كان منظر الجرف رائعاً، إذ كان أحد أطرافه بمنزلة طريق يسلكه الحاج إلى مكة: وخاصة باتجاه الجنوب حيث كانت النتوءات في الجبل تنحدر انحداراً شديداً باتجاه سفوحه وهي تتخذ شكل النسق الممتد في المدى لتصل إلى حائط جبلي يبلغ ارتفاعه حوالي ثلاثة إلى أربعة آلاف قدم مشكلاً الوادي في الأسفل. وكانت تطل هنا وهناك سفوح سلسلة جبال الحجاز. وكانت هناك مجموعات كبيرة من القردة لها وجه الكلاب، وكانت منتشرة على صخور منطقة كرا المغطاة بالأشجار. كان بالقرب من ذلك المكان العديد من النساء والأطفال وبجانبهم أعداد من الماعز. كانت جميع هذه المخلوقات تتحرك بهدوء وسط هذه المنحدرات التي يمكن أن تؤدي زلة القدم فيها إلى كارثة.

وبعيداً في أسفل الوادي كانت تربض بعض القرى المتفرقة التي تسكنها جماعات من قبائل هذيل، وقريش وعشائر جبلية أخرى. اجتمعت تلك القرى حول منطقة التقاء العديد من الوهاد: وهي منطقة تكثر فيها أعشاب المحاصيل الخضراء والبرسيم والقمح، كما أنها تشكل مدخل وادي نعمان الذي تجري في قعره عين السيدة زبيدة باتجاه سهول عرفات، ومنها تسير نحو منى ومكة. أما مكة فهي تجثم وسط تلال تحجبها عن الأنظار. حدث أن كنت على قمة واقعة قبل

حبلة يبلغ ارتفاعها ٧٥٠٠ قدم، ومن هناك شاهدت بعض أجزاء مكة. أما البحر الذي يقع إلى الجنوب من جدة فيمكن مشاهدته بسهولة خاصة عندما يكون الجو صحواً. تبلغ المسافة بينه وبين تلك القمة حوالي مئة ميل. وعندما أخبرت الملك بأنني شاهدت البحر في إحدى زياراتي إلى الهدا، كان من الواضح أنه ظن أنني كنت أتخيل الأشياء. كما لا أعتقد بأن الملك اقتنع بوجهة نظري حين قلت بأن أفق الإنسان يمتد على نحو محسوب متناسب مع الارتفاع الذي يكون عليه ومع ارتفاع أو علو الشيء المراد مشاهدته. ومع ذلك وافقني الملك على القول بأن الإنسان يمكنه مشاهدة النجوم!

تكثر على منحدرات كرا وجباله وفي المناطق المجاورة لها أشجار العرعر والصبار. في حين يجثم على قمة الطريق الذي يعد صالحاً للبغال والحمير وليس للسيارات والجمال كوخ وحيد يستخدمه عامل برقيات مهمته الحفاظ على الاتصالات بين مكة والطائف. كانت مهمته مهمة موحشة، وأحياناً تصبح خطرة خاصة عندما يأتي الرعد ويدوي في قمم تلك الجبال. حدث في إحدى المرات أن طرح البرق ذلك العامل أرضاً وأفقده صوابه، وذلك عندما كان يلتقط سماعة الهاتف ليجيب على مكالمة كانت قادمة من مكة أو الطائف.

أما الطريق إلى الأسفل المرصوف بشكل رديء بأحجار من الصوان فكان في حالة سيئة بسبب عدم إصلاح الأماكن التي أتلفتها الأمطار أو الانهيارات الأرضية. أدركت أن الانحدار كان أكثر من مجرد شيء مزعج، والسبب في ذلك يعود إلى البرد الذي كنا نشعر به بسبب الأمطار التي بللت ملابسنا بالقرب من وادي محرم. قضينا مشياً على الأقدام خمس ساعات في قطع الطريق المتعرج الذي يبلغ طوله خمسة أميال والمؤدي إلى قرية «كر» الواقعة على سفح ذلك

الانحدار. بعدها أصبح بمقدورنا أن نركب الدواب لنجدد المسير لمدة ساعتين. وصلنا بعدها إلى قرية بائسة فيها عدد من البيوت المبنية من أحجار الصوان يقال لها قرية شداد، وهي تقع على مدخل وادي نعمان. وعلى مسافة قريبة خلف تلك القرية كانت سيارتي في انتظارنا. وفي أعلى الطريق الجبلي كنا قد مررنا من تحت صخرة ضخمة متدلية يقال لها صخرة عون، وهي تجسد المناسبة التي لم يجرؤ فيها الشريف عون الرفيق من المرور من تحتها؛ وذلك عندما كان في طريقه إلى منتجعه الصيفي في الطائف. لم يجرؤ عون على المرور من تحتها على الرغم من تأكيدات مرافقيه له بأن هناك حائطاً صخرياً على الطريق ومن غير المحتمل انهيار ذلك الحائط في تلك المناسبة بالذات. مر على تلك الحادثة حوالي ثلاثين عاماً، ولا تزال فكرة الخطر على حالها حتى يومنا هذا. يزداد ذلك الوعيد بالخطر خاصة عندما يتم الحديث عن بناء طريق معبد في أعلى الجرف ليكون طريقاً أكثر سهولة.

يفترض أن الشريف عون انقلب على عقبه وسلك طريق النزول، ومر بنبع المسيل الذي تتدفق مياهه على شكل فقاعات تخرج من مسامات الصخور البركانية، وتسير عبر بستان رائع تكثر فيه أشجار التين البرية. كما تنساب مياهه عبر الصخور الجلمودية حتى تصل إلى شفير هاوية الانكسار الصخري. لا بد أنه عند طريق ما بعد تلك النقطة أن يكون عون قد استأنف مسيره صعوداً سالكاً طريقاً فرعياً أطول، لكنه سهل الانحدار أُعدَّ بشكل خاص لقوافل الجمال التي كانت تمر من هناك بين مكة والطائف. وعلى انخفاض بسيط تحت تلك النقطة عبرنا الضفة اليسرى من الوادي الضيق الرئيس، وكانت أقل انحداراً وعلى شكل قناة أعرض. وبعد فترة قصيرة وصلنا (كر) وهي عبارة عن مجموعة بيوت بائسة مبنية من حجارة الصوان الأسود. استرحنا في أحد هذه البيوت المكشوفة لمدة

ساعـتين من الزمن، وهناك جـاءت حسناء من هذيـل وبالغت في خدمـتنا بعناية ملحوظة، وقـدمت لنا الطعام المتوافـر في تلك القرى مثل: الـبيض والماء. تناولنا إضافة إلى ذلك الشاي والرمان الذي كان بحـوزتنا. رفضت تلك الصبية أن نلتقط صورة لها لكنها لم تكن خجولة على الإطلاق.

أصبحنا الآن عند منتصف الوادي حيث يـنبثق وادي نعمان من هناك ويمتد على نحو طويل مستـقيم حتى يصل إلى البحر. وقبل أن نصـل إلى مقدمة الوادي في منطقـة شداد مـررنا بكومة ضـخمـة من الأحجـار المتناثرة والمعروفـة باسم (قـبر الوحش) ولم يكن لدى أصحابي أي فكرة عن تاريخ ذلك العالم ولا عن مدلوله. وحسب مـا أعتقد أن ذلك المـكان هو قبر قال المؤرخـون عنه بأن أهالي مكة أثناء مرورهم به كـانوا يلعنونه ازدراء بالميت الرابض فـيه. ويقال: إن الميـت هو الخائن الذي أرشد جيش القـائد الحبشي أبرهة عندما هاجم مكة فـي سنة ٥٧٠ للميلاد. وهذه الحادثة أشـار إليها القـرآن الكريم، وقد وصفت الآية القـرآنية خسـة الغازين وارتباك الفيلة بفعل معجزة حجارة السـجيل التي قذفتهم بها أسراب طيور الخطاف أو السنونو. لعله من غـير المناسب هنا مـناقشة المحـاولات المختلفـة التي قام بـها الأوروبيون والمفكرون الآخـرون لتصـديق تلك الرواية التي يعود أصلهـا إلى العام الذي ولد فـيه رسـول الإسلام العظيم مـحمـد صلى الله عليـه وسلم. ومن تلك المناظر الرائعة في سلسلة الجـبال المذهلة التي انحدرنا منها مسـتمرين في النزول في طريق الوادي إلى أن وصلنا إلى نقطة تبـعد حوالي عـشرة أميـال عن شداد، ومن هناك تركنا الوادي الذي يمتـد عبـر سهـول عرفات باتجـاه مكة. تصـادف أن مررنا بمجموعة من العمال الذين كانوا منهمكين في تنظيف وترميم قناة جر المياه المشهورة والمعروفـة باسم عين السيدة زبيدة. إذ كـانت المياه في وقت من الأوقات تسيـر بها

ببطء بسبب العديد من المواد التي تراكمت في مجراها على مدى سنوات طويلة. كانت الإدارة التركية في وقتها قد أهملتها كما أهمل نظام الأشراف أمر تلك القناة لدرجة أنها نسختها من الوجود. قرر ابن سعود أن يولي أمر هذه القناة الأفضلية الممكنة، لكن تلك المهمة لم تنجز دون بعض الصعاب. وبالفعل تم إصلاحها ليستفيد منها الحجاج وكذلك الحضر. كان من الضروري التعرف على امتداد مجرى العين تحت سطح الأرض في وادي نعمان وذلك بالتجربة العملية أو بإنجاز أعمال الحفر الفعلية التي وصلت إلى عمق مئه قدم وذلك بحثاً عن الفتحات التي ينفذ من خلالها الإنسان إلى المجاري التي صممت أصلاً من أجل أعمال تنظيف العين. إن تراكم مئة قدم من الحصى والطمي يدل على معدل المستويات الجيولوجية التي تصل إليها هذه الوديان في الجزيرة العربية.

بلغت المسافة بين منطقة شداد والحرم في مكة حوالي ٢٥ ميلاً، وكانت تمتد على مسافات قدر لي أن أراها وأكتشفها في السنوات القادمة والتي وصفتها في مؤلفات سابقة فيما يتعلق بأول حجة قمت بها من بين عدة حجات[١]. وصلنا مكة عند غروب الشمس وكانت زيارتي لمكة زيارة خاطفة حيث لم يسمح لنا الوقت سوى طواف القدوم وتناول طعام العشاء مع صديق قديم كان منزله مشيداً على حد الحرم نفسه. تابعنا المسير وقبل منتصف تلك الليلة وصلنا إلى جدة، وهناك سرحت في عالم جديد سبق أن كنت فيه قبل أربعين يوماً فقط.

أصبحت بين أصدقائي القدامى وسررت لأنهم كانوا متفهمين ومتعاطفين لاختفائي المفاجئ وللأسباب التي دعتني لذلك. كان صديقي السير أندرو ريان

(١) انظر: «حاج في الجزيرة العربية». (المؤلف).

الذي وصل في شهر أيار بصفته أول وزير بريطاني في زيارة لبلاط الملك ابن سعود قد لخص وضعي حسب ما علمت بقوله: إنني اكتسبت على الأقل الخلفية المناسبة للعلم في الجزيرة العربية، وذلك بعد فترة من التيه والضياع في فراغ اجتماعي وروحاني. كما أكدت الرسائل التي وصلتني من بريطانيا -كجواب على إعلاني عما كنت أزمع القيام به- عن قبول عام لقراري الذي لا رجعة فيه والذي على نطاق واسع موافقاً للصبغة العامة لمنهج حياتي واهتمامي. وأنا بدوري قلت لأصدقائي القدامى الملمين بتطلعاتي الفلسفية والفكرية بأنني لا زلت أحتفظ بتعقلي ولم أتخل عن جديتي في عمل، ما كنت قد أقدمت على فعله. لم أسع وراء الشهرة المبتذلة لما قمت به من عمل ولم يحدث أبداً على مدى السنوات اللاحقة أن ادعيت بأنني خبير بالديانة الإسلامية، بل فضلت أن أكون مجرد طالب علم متواضع وباحث يسعى وراء المعرفة.

إن الدين الإسلامي عقيدة توحيدية ترتكز بالدرجة الأولى على كلام الله في القرآن الموجه إلى الإنسانية كافة، وعلى أحاديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأفعاله. كنت دائماً أقبل التفسيرات الموثقة التي تتفق مع القرآن والسنة والمنقولة من علماء الدين الذين قضوا حياتهم في الدراسة وتفسير جوانب الدين الإسلامي. كانت نشاطاتي ودراساتي محصورة في الأمور الدنيوية التي جاء نتاجها الفكري على نحو ربما يكون أكثر من كاف أو ربما كان بمنزلة جزاء لي عن حياة بعيدة جداً عن العبث واللهو. وفي كل هذه الأعمال كنت دائماً أحظى باستحسان ودعم الرجل العظيم الذي كان قدري أن أتعرف عليه ألا وهو ابن سعود. المؤسس العظيم للمملكة العربية السعودية الحديثة. يمكن أن تكون حياتي قد سلكت منحاً مختلفاً بفعل الفرصة التي سنحت لي التعرف عليه.. ربما يكون من العبث الآن

كما يمكن أن يكون الوقت متأخراً جداً للتعليق عليها. من المؤكد أنني لن أبدل ما قد حصلت عليه بما يمكن أن أكون قد خسرت، علماً بأن وقائع العمر وحقائقه التي استغللتها واستمتعت بها كل الاستمتاع تبدو الآن وكأنها تتلاشى في أفق حلم أصحو منه لأتساءل عما إذا كانت هذه الذكريات تحتوي فعلاً على أمور جوهرية ملموسة. ولكن مهما يكن الحال فقد وجدت في الإسلام والجزيرة العربية -ومن واقع علمي- نظاماً اجتماعياً سهلاً صُمِّم ليتناسب مع كل المتطلبات المعقولة للجنس البشري. استمر ذلك التوازن إلى أن فتن الإنسان بالأمور المادية، وأصبح يهيم بين ورود ونشوة الحدائق الغربية المستوردة. حدث كل ذلك تحت سمعي ونظري. وراقبت عيوني ذلك التحول السريع في الثروة وفي الرخاء اللذين طرءا على مجتمع كان في فترة من الفترات مجتمعاً فاضلاً إلى أقصى الحدود. في تلك الأيام السعيدة الغابرة عانى العرب من مركَّب النقص الذي لا يمكن تبريره بأي مقياس مطلق على الرغم من أنه كان بمثابة الحصن في وجه مكائد الغرب ونزغات الشيطان. لكن الثقافات الغربية كانت قد تمكنت من إرساء أسسها المتطورة في تخوم الجزيرة العربية وفي حالتها المتأرجحة بين الحضارتين. ومما كان واقعاً لا محالة هو أنه عندما يحين الوقت لا بد أن يؤدي هذا الإحساس بمركَّب النقص إلى تقويض واستنزاف عوامل الدفاع عن كبرياء الصحراء التي ستتحول لتصبح قاسية غير مضيافة لا تساعد على العيش والمأوى.

كان جزاء الساميين العرب القدامى أن حصلوا على فائدة كبيرة لمساهمتهم البالغة في تطوير الثقافة الإنسانية ورفدها بمرادفات الإيمان بالله الخالق الواحد، لقد استكملت العجلة دورتها وهاهم عرب تلك الأجيال يتركون -وبكامل الرضى- لرجال الصناعة الأجانب مهمة استخراج ثرواتهم وتزويدهم بوسائل الراحة التي

أصبحت ضرورية للعيش الرغيد المريح. وينطبق هذا أيضاً على العرب في كافة العصور إذ تركوا عناء الفلاحة والزراعة لعبيدهم وخدمهم في حين أخذ نبلاؤهم يجوبون القفار بحثاً عن المراعي والكلأ لقطعانهم وماشيتهم، كما كانوا يبحثون عن مواقع أعدائهم للإغارة عليهم وسلبهم ممتلكاتهم. ومن الأمور المتناقضة ظاهرياً أنه في أيام التعصب الديني والحمية الوطنية -وهي ليست بأيام بعيدة- كان الأجنبي -الذي ينظر نظرة احتقار- ينعم بكل الرفاهية اللازمة لنمط حياته في حين كان قبول العرب -بشكل عام- للأساليب والقيم الأجنبية ملازماً لقيود مزعجة مصحوبة بإهانات صغيرة مفروضة على وسائل رفاهية الأجنبي ومكاسبه المستحقة.

كان الوضع الاقتصادي في جدة غير مرض إلى حد بعيد، إذ كان يبشر بقدوم التردي الاقتصادي العالمي إلى مناطق الجزيرة العربية، كما يبشر ذلك بقدوم حجاج فقراء على مدى العشر سنوات القادمة. تبددت طفرة سنوات الخير التي تحدث عنها الناس أيام الحكم السعودي في الحجاز، ولم يبق ليدل عليها إلا القليل. أما السنوات العجاف التي كان قدومها متوقعاً فحلت لتختبر القدرات الإدارية لنظام الحكم الجديد. وبالطبع كان هناك بعض المحاولات الهادفة لتلبية احتياجات البلاد الملحة بمختلف السبل.

عند حوالي منتصف شهر أيلول وصلت أربع طائرات بريطانية ومعها طيارون بريطانيون لصيانتها والتحليق بها. ولكن ما إن انقضت ثمانية أشهر حتى طلب الملك من الحكومة البريطانية إرسال ثلاثة طيارين ليحلوا محل الطيارين القدامى الذين قدموا استقالتهم. كان أحد الطيارين المصريين ويدعى حسن باشا أنيس قد قدم إلى الحجاز ومعه اقتراح بإنشاء مدرسة لتدريب السعوديين على الطيران. لكن بسبب الركود الاقتصادي لم يتحقق ذلك المشروع ولم يتم التدريب الفعلي على أيدٍ بريطانية وأمريكية إلا بعد مرور سنوات عدة.

ومن ناحية أخرى وقعت شركة ماركوني عقداً لإنشاء ما يزيد عن اثنتي عشرة محطة للاتصالات اللاسلكية المحلية. وفي منتصف عام ١٩٣٢م تم إنجاز شبكة اتصالات تلك المحطات وأصبحت تعمل بكامل طاقتها. وكان ذلك من دواعي سرور الملك وكبار الرسميين من حكام الأقاليم. كما تم أيضاً إنشاء استراحات خشبية واسعة على طول طريق الحجاج، كما تم تركيب مضخات في أماكن مناسبة لتخدم احتياجات الحجاج. كان الملك ومنذ البداية قد كرس كل اهتمامه لتحسين الخدمات الصحية وتطويرها. أسفرت تلك العناية عن القضاء على الأوبئة، ويعود الفضل في ذلك إلى اهتمام الملك والمبادرة التي قام بها. كما لم يجد الكادر الطبي مجالاً للتذمر في ذلك العهد العظيم الذي اتسم بالهدوء والاستقرار. إلا أن نقطة الضعف الرئيسة في ذلك المضمار تجلت في الحماس المفرط للعناية الطبية والسعي من أجل تأمين المنتجات الدوائية الأوروبية. وبهذا الخصوص اعترف الملك بتواضع أن الأدوية الوقائية والعلاج الشعبي المحلي كانا منتشران بشكل واسع. كان من المسلي مراقبة صاحب الجلالة في غرفته بالقصر وهو يتناول علاجه وسط عدد كبير من الحضور. فأحياناً يأخذ حبة دواء ويشرب بعدها كأساً من الشاي ليسهل عليه بلعها، وأحياناً أخرى ينظف عينيه بالقطن المبلل بالدواء ويلقي به بعد استعماله، وفي مناسبات أخرى كان يتم إعداد جهاز كهربي له يمسك الملك بمقبضيه لينشط الطاقة التي لا يزال جسمه محتفظاً بها. وفي بعض الأحيان كان يستدعي أحد الرجال الأشداء من الحضور ليمسك له بالمقبض ريثما ينظف أنفه بالمنديل: وهنا من الأفضل أن أترك لمخيلة القارئ مدى الدعابة التي كانت تصدر من مزاح الملك الذي لا ينضب.

كان مجلس الملك وبشكل دائم يضم شخصاً أو شخصين من الظرفاء المرحين الذين يتميز عملهم بمراقبة أدق ما يصدر عن الملك من حركات والقيام بالتجاوب

معها، ومن أطرف الأحداث التي يمكن أن أتذكرها حادثة شخص كان قد قدم إلى الملك ومعه معروض ليقدمه له، وبينما كان يحاول أن يشرح للملك فحوى ذلك المعروض تشتت تركيزه لسماعه ضحكات متزايدة في التصاعد، فاستدار ليرى ما كان يجري فلم يشاهد سوى السياف واقفاً خلفه مباشرة وفي عينيه نظرة القسوة وكأنه كان على وشك أن يقطع رأسه. كان جو المرح يبدو دائماً على مجالس الملك التي كانت جدية في ظاهرها. ومن بين ما لفت نظري من تلك الأمور ظاهرة تتعلق بسرعة البديهة اللغوية: أدركت أنه على الرغم من أنني كنت أفهم كل كلمة تقال، لكنني لم أكن أفهم الموضوع الذي كانوا يتحدثون عنه. كانت وما زالت التلميحات التي يستعملها أهالي نجد في محادثاتهم مثار حيرة وغموض بالنسبة لي. والتفسير المحتمل لتلك الظاهرة هو أن النغمة الموسيقية لتلك اللهجة كان لها أثر في تشتيت انتباهي عن المعنى الحقيقي للكلمات.

كانت استراحتي في تلك المرحلة في نجد استراحة قصيرة. وبعد أن قضيت ليلة واحدة في مكة ضيفاً على صديقي القديم محمد بن عبد الرحمن الفضل عدت إلى الطائف للمشاركة في احتفال مهيب تم في الهواء الطلق. كان الملك في ذلك الاحتفال يجلس بسكينة تحت مظلة واسعة حاملاً بيده منظاراً لتقريب المسافات وذلك ليفتتح حسب الأصول نواة الكلية الجوية. لم تكن الساحة الوحيدة المتوافرة في جوار تلك المدينة كافية من حيث المساحة، وكان الناس ينتظرون بتلهف وصول الطائرات الثلاث إلى هناك. في الواقع سبق أن هبطت في تلك الساحة طائرات بدائية من حجم صغير كان يقودها طيارون روس. وكان السعوديون قد تخلصوا من آخر هؤلاء الطيارين في عام ١٩٢٤م عندما هبط هناك لعدم علمه بأن أعداء الملك حسين ملك الحجاز كانوا قد دخلوا الطائف. لكن الطيارين البريطانيين لم

يقعـوا في ذلك الخطأ نفسه. فكان هبوطهم واحـداً بعد الآخر هبوطاً رائـعاً. كان هؤلاء الثـلاثة وهم مـريس، و نورث، ولوي طيـارين جـديرين بـالتطورات التي حدثت في المستقبل والتي ساهمت في تسليح الجزيرة العربية وتأمين أساليب الراحة فيهـا. استقبلهم الملك في خيـمته خير اسـتقبال، لكن العناصر المتـشددة من أتباع الملك انسـحبوا من الخـيمـة بشكل لافت للنظر، وذلك قبل أن يتلـوث جو تلك الخيمة بنفس هؤلاء الكفار. في الواقع حاول الملك أن يمنعهم من الخروج، ولكنهم تجاهلوا محاولته لأنها تتعارض مع مبادئهم الدينية. ومن الغريب الآن أن نفكر بمثل هذه الأشيـاء على أنها وقـائع لم تحدث إلا قـبل ربع قرن من الزمن، حـيث كان الرأي العام والروح الجماعية ظاهرتين قويتين يمكن المجاهرة بهما. علاوة على ذلك حدث في وقت مبكر من ذلك العام، وبالتحـديد في معركة السبلة، أن تم تسوية تلك المسألة وفق مفهوم العبارة التـاريخية «لا ملك إلا أنا» ! كانت تلك هي عبارة سليمـة طالما أن الشخصـية الحاكمـة تكرس نفسهـا وحدها لخدمة الصـالح العام، ناهيك عن ذكر العقيدة الوطنية المترسـخة في نفوس الأهالي وفي الأسرة الحاكمة. ظلت تلك المقولة سائدة طالما أن مصالح الناس لم تتضرر.

لكن في التاريخ مواقف حـقيقية وإن كانت قليلة، دلت على اسـتمرارية حكم فردي ناجح جاء بعد وفاة الملك العبقري. تدل تلك الوقائع على ثوابت راسخة لا يمكن دحضها تتعلق بالدور الذي أداه الرأي العام في صـياغة شكل ومصير الجنس البشري، كـما تدل على ظهور وتراجع وانهيار العـديد من الإمبراطوريات. تكمن مأساة العظمـة في أن عليها أن تتجاهل أو أن تقـمع تطلعات وطموح الناس لكي تتمكن من تحقـيق غايتها المشروعة التي هي فـي الواقع غاية جديرة بالثناء، ولكن

عندما تتحقق تلك الغاية نجدها أمام القانون الطبيعي الذي يفسر تناقص وانعدام وسائل الرجوع إلى نقطة الانطلاق.

في تلك الأيام كان احتمال ورود تلك التطورات أمراً غير وارد مع وجود ابن سعود. كان أمامه فترة ربع قرن للاستمرار في الحكم بما فيها حماس متقد يمكن أن يدوم مدة خمسة عشر عاماً. كانت تلك السنوات بمثابة سنوات مصير ليس للجزيرة العربية فحسب، بل لكافة دول العالم. فلم يكن هتلر قد ظهر على ساحة السلطة في ألمانيا، كما أن حلم النفط العربي لم يبدأ في زعزعة هجوع وسبات أولئك المسؤولين عن تقويم الأفكار السخية المتعلقة بمصادر البلاد الشحيحة. كما أن شبح الانهيار الاقتصادي كان قد بدأ يهدد تلك المصادر بالانقراض وعلى نحو متناقص جذري. كان من المتوقع لموسم الحج القادم لعام ١٩٣١م أن يطلق إنذار شؤم وتحذير حيال الرضى الذاتي الناجم عن الازدهار النسبي الذي شهدته سنوات شهر عسل الحكم السعودي. كانت الأصوات ترتفع بحذر هنا وهناك لتعرب عن حنينها للأيام الخوالي الطيبة السهلة، وكان الجميع متفق على أن فترة عهد حكم الأشراف القصيرة لم تترك شيئاً يمكن أن يوصي به تعزيز احترام الشعب. لكن السؤال هو ما الذي حدث للوعود التي صدرت عن النظام السعودي القديم؟ الحقيقة هي أن أحلك الهواجس بالشر والشؤم سبقت حلول أو تنفيذ تلك الوعود، لكن الاعتدال الميمون في تصرفات المنتصرين وفي تعاملهم مع الشعب بدد تلك الهواجس. علاوة على أن الإخوان كانوا ينظرون إلى تلك التصرفات بعين السخط والغضب[1]. لم يكن هناك مجال للتساهل مع التسيب الخلقي والتراخي في الأمور الدينية، لكن الملك أوضح منذ البداية بأن العناصر الأخرى ستظل في

(١) وهذا السخط والغضب هما اللذان قادهم للثورة على الملك عبدالعزيز في موقعة السبلة المعروفة.

مأمن بعيدة عن الاضطهاد والمضايقة. وبالواقع كنت حاضراً ذلك اليوم عندما كان الملك يشرح لرئيس الشرطة في مكة وجهات نظره ورغباته في مثل تلك الأمور.

كان رئيس الشرطة رجلاً عراقياً ذا كفاءات عالية يدعى مهدياً[1]، خوله الملك صلاحيات يمكنه بموجبها النظر في كل ما يمكن أن يقوم به رجال الشرطة من أعمال بما فيها منع الجريمة واعتقال المجرمين أو اعتقال المشتبه بأنهم قاموا بأعمال إجرامية. وفي تلك المناسبة قال الملك أيضاً: إن عمل هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سيكون مقصوراً على فرض السلوك الفاضل بما يتمشى مع العقيدة الدينية ومراقبة الأشرار والآثمين والمرتدين عن الطريق القويم وبالتالي رفع تقريرهم إلى الجهات المختصة. لكن الأمر في نهاية المطاف يعود إلى رجال الشرطة الذين كانوا يتطلعون إليهم من أجل الحفاظ على النظام. وقال بأنه يرغب في أن تكون إدارة الشرطة إدارة حكيمة وعلى المستوى الذي تتطلبه أعمال قمع النشاطات المحظورة، ومنها موضوع شرب الخمر والمخدرات، واللواط، والزنى، والقمار، وما شابه ذلك.

في الواقع لم يكن لدى الناس في مكة وجدة أي سبب يحملهم على التذمر ضد التدخل الرسمي طالما أنهم هم أنفسهم ملتزمون بتعاليم الدين الذي أنزله الله عليهم. علاوة على أن الإجراءات المتحررة التي تبنتها الحكومة لتلطيف وراحة أحوال الحجاج، مثل: إدخال السيارات، قد فتحت آفاق عمل يمكن أن تعود بالكسب المادي عليهم. في نهاية المطاف شهدت تلك الطفرة تدفق ثروة شبيهة بحمى الذهب، إذ باع الناس بيوتهم لشراء السيارات التي تزايد عددها في البلاد قبل بوادر الركود الاقتصادي. في تلك الأحوال وجدت الحكومة نفسها مضطرة للتدخل للسيطرة على الوضع من أجل مصلحة الحجاج. في الوقت نفسه كان تجار

(١) اسمه مهدي الصلح، عيّنه الملك عبدالعزيز قائداً للشرطة لكفاءته.

الحجاز قد كدسوا مستودعاتهم بمواد توقعوا أن تكون الحكومة بحاجة إليها وقد باعوا الكثير منها إما بالدين أو وفق شروط سهلة تناسب أوضاعهم. لكن السيولة المادية أصبحت الآن شحيحة، وأصبح من الضروري أن تفرض الحكومة بعض القيود على نفقاتها.

هيأت لي الظروف فرصة مراقبة تطورات الأمور. إذ حدث بعد مرور بضعة أيام على وصولي أن دعاني رئيس وأعضاء مجلس الشورى احتفالاً بدخولي في الإسلام. ترأس تلك الجلسة الأمير فيصل، وكان من بين الحضور عبدالقادر الشيبي الأمين التقليدي على مفاتيح الكعبة، وكان معه ابنه وحفيده إضافة إلى كبار وجهاء المدينة. وكما هي العادة تم تبادل الأحاديث والترحاب. وبعد أن انفض الاجتماع جلست في الحديقة مع صديقين قديمين لي من كبار الأسر في جدة. أعربا عن خالص أملهما في أن يسفر التزامهم بأخوتهم عن تعاون فعال فيما بيننا من أجل تحسين ظروف وأحوال البلاد التي أصبحت الآن بلادي كما هي بلادهم.

وبعد بضعة أيام تحدثت مع الشيخ محمد الطويل، الذي كان يشغل منصب وزير المالية في نظام الأشراف المنهار، وكان صريحاً للغاية في حديثه معي: كان قد مضى على انقطاعه عن العمل حوالي خمسة أعوام علماً بأنه لم يتردد في الإعراب عن ولائه للنظام الجديد، إلا أن الضيق الاقتصادي المتزايد أظهره على أنه شخص لا يمكن الاستغناء عن خدماته في عملية إعادة ترتيب الأمور. وعليه فقد تم تعيينه رئيساً وكبير خبراء اللجنة الاقتصادية المالية التي كلفت بدراسة وتحديث الأمور الإدارية في الأحساء، وهو من أغنى الأقاليم الزراعية في المملكة. قام مع زملائه بزيارة الطائف للاجتماع مع الملك ليتوجه بعدها إلى مقر عمله. اجتمعت بهم عدة مرات خلال إقامتهم هناك، وصرح لي محمد الطويل نفسه بأنه يلومني شخصياً عن التقصير الذي

صدر عن الحكومة؛ وذلك لأنه عرف مني أنه يمكنني وبحرية الوصول والتحدث مع الملك علاوة على أن النصائح التي أطرحها عليه كانت تلقى آذاناً صاغية. تقبلت ما تضمنه كلامه من أن نصائحي كانت دائماً جيدة وأنه باستطاعتي عن طريق رجعي أن ألقي بنفسي تحت رحمة المحكمة وأعترف بأن حجم اللوم الموجه إلي عن الخمسة والعشرين عاماً من الفشل هو أثقل مما يمكن لأي إنسان أن يتحمل من اللوم.

إن النتائج لكفيلة بأن تتحدث عن نفسها والسؤال الوحيد الذي يجب الإجابة عنه هو: من الشخص الذي يجب أن يلام؟ وعلى أي تقدير كان اللوم. في تلك المرحلة موجه إلى رجل يعد من أقدر الرجال وأبعدهم نظراً في البلاد وهو: عبدالله السليمان: وكان من أحد أبناء القصيم ومن أسرة معروفة بولائها لابن سعود. لا يمكن إعفاءه من اللوم بأي شكل من الأشكال، لكن لا بد أن نترك المجال للتبرير بأنه كان يعمل في ظل أقسى الظروف. كان دائماً يتمتع بكامل ثقة سيده الذي اتفق معه بشكل تام على الأساسيات التي تقضي بأنه -بغض النظر عن ميزانية بنك الدولة- يجب تلبية أوامر الملك. لكن عبدالله السليمان الذي وجد نفسه مضطراً لإيجاد واستحضار أموال من ميزانية الدولة الفارغة، عمل جاهداً لإيجاد طرق وأساليب تهدف لزيادة مصادر دخل البلاد. والجدير بالذكر هنا أن عبدالله السليمان كان مدة ربع قرن، الشخصية المهيمنة، طبعاً بعد الملك. ولو كان له الكثير من الأعداء لكان بإمكانه أن يعاملهم بازدراء، ذلك طالما أن ابن سعود بقي على قيد الحياة. وبعد وفاته كان بإمكان عبدالله السليمان أن يتقاعد مرتاحاً بعد عمر مشرف في الخدمة. كانت بحوزته موجودات وأصول يتمنى كل إنسان أن تكون بحوزته. ساعد عبدالله السليمان بلاده على النهوض من مشكلة العجز المالي لتصل إلى مكانة من الغنى والازدهار الذي تحسد عليه. كانت نفحات من هذا

النوع تهب على مسرح الأيام السعيدة الخوالي في أصقاع مدينة الطائف الساحرة حيث تتكاتف الدولة مع المجتمع لتبرز في حلة من السعادة والصفاء متحدية قدوم العاصفة. غالباً ما كان الملك نفسه يشعر بالاضطراب والقلق؛ كان يشتكي من الطقس ومن جو الجبال المرتفعة، كما كان يشكو من نوعية المياه التي تم إيصالها إلى القصر في تلك الفترة التي كانت من مياه بحر جدة المحلاة التي لا طعم فيها.

وفي إحدى الحوارات التي أجريتها مع ابن سعود اقترحت عليه أنه بدلاً من التحدث بشكل غامض عن الثروات الجوفية المحتمل اكتشافها في الجزيرة العربية والتي كانت من الأحاديث الدارجة بين الرسميين في أواسط القطاع الخاص، لا بد من القيام بعمل إيجابي ما للتأكد من الوجود الفعلي لمثل هذه الثروات. وأضفت قائلاً: إن الجهات التجارية المعنية بهذا الأمر يمكن أن تكون في غاية الاستعداد لدفع الأموال من أجل الحصول على حق التنقيب عن ثروات البلاد الكامنة في باطن الأرض. وهنا أشار الملك بشيء من الضجر إلى إحدى تجاربه في هذا المجال، وكانت تلك عندما منح حق التنقيب عن الثروات الطبيعية لشركة ايست جنرال البريطانية مقابل شروط اسمية، لكنه لم يحصل منها على أية نتائج تستحق الذكر. وأضاف بأنه يمكن أن يعطي أي جهة من الجهات كامل حقوق التنقيب مقابل أن يحصل على مليون جنيه. عندها اقترحت بأنه يمكنه أن يحقق ذلك إذا عرض الأمر على تشارلز كرين المليونير الأمريكي المحسن الذي كان في تلك الفترة يقدم مساعدات قيمة إلى الحبشة واليمن. لم أكن أعلم فيما إذا كان تشارلز في ذلك الوقت في القاهرة، أو أنه على وشك الوصول إلى هناك، لكنني كنت متأكداً من أن تشارلز سيكون سعيداً جداً في القيام بزيارة لجلالة الملك شريطة أن يتم إبلاغه عن الوقت الذي يكون فيه الملك متواجداً في جدة. عندها أكد الملك لي

بأنه سيكون في جـدة في الفترة الأخـيرة من شهـر جمادى الآخـرة أو في حوالي منتصف تشرين الأول. وتبين فيما بعد ولأسباب عدة أنه كان من المستحيل بالنسبة للملك أن يلتزم بذلك الموعد. لكن اللقاء المصـيري بين تشارلز والملك تم في شهر شباط عام ١٩٣١م.

كانت جدة لمدة أسـبوع مسرحاً للولائم والمؤتمرات. وفي سـياق هذه الأمور تم الاتفاق على أن يعرض تشارلز على الحكومة خـدمات أحد المهندسين الجيولوجيين الذي كان يعـمل لصالحه في الحبـشة واليمن منذ سـتة أشهر. تضـمن العرض أن يدرس ذلك المهندس خطة توصيل المياه إلى جدة، إضـافة إلى مشاريع أخرى على أن تقدم له الحكومة كافـة التسهيلات الضرورية بما فيهـا وسائل التنقل التي يتطلبها العمل. كان المهندس المعني وهو شاب يدعى كارل تويتشل قد وصل إلى جدة في شهر نيسان من ذلك العام وقام بأول رحلة اسـتكشاف له برفقة خالد القرقني وهو واحد من مستـشاري الملك. أخذتهم تلك الرحلة من شاطئ البحـر الأحمر حتى وصلوا إلى دبي، وتلك كـانت أماكن ذكرت التـقارير الواردة بخـصوصهـا خلال الحرب بأنهـا أماكن تحتوي علـى آبار ينز منها النفط. عادت الحـملة ومعها أخـبار مشجـعة عن وجود النفط والذهب ومعادن أخـرى. وهنا يجب الاعتراف بأن هذه المواقع والأمور التي بالغوا في الترويج لها لم تسفر إلا عن الشيء القليل المحدود. على أية حـال، حثت الحمـلة الحكومة على المبـاشرة في سـياسة جـادة من أجل التنقيب عن النفط: كان ذلك بمثابة ضرورة اقتـصادية تفرض نفسها على الرغم من الكراهية المتأصلة ضد الأجانب، كما تنتصر على نزعة تعصبية دينية.

وفي خريف العام نفسه وصل تويتـشل إلى معسكر الملك بالقرب من الرياض، ومن هناك رافـقته إلى الأحـساء، وهناك ذهب كل مـنا إلى ما كان يـنوي إنجازه:

بالنسبة لي ذهبت لأكتشف مناطق الربع الخالي التي سبق لبرترام وأن عبرها في بداية ذلك العام. أما تويتشل فذهب ليكتشف بئر النفط في الظهران. ومما لا شك فيه أن الفضل في اكتشاف ذلك البئر النفطي يعود إلى تويتشل نفسه الذي وضع كافة إمكاناته وخدماته تحت تصرف الحكومة السعودية. كما يعود الفضل لي، كما يمكنني أن أدعي، لكوني أديت دوراً رئيساً في إحضار تويتشل إلى الجزيرة العربية في مرحلة حاسمة من مراحل اكتشاف ثروات البلاد.